الدراسات الاستشرافية
والرؤية الإسلامية المعاصرة

خديجة مستعد

طالبة باحثة في دكتوراه مختبر الفكر الإسلامي والترجمة وحوار الحضارات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك، الدار البيضاء

المغرب

الملخص:

يوضح هذا البحث أهمية الدراسات الاستشرافية والحاجة إليها، جلبا للمنافع ودفعا للأخطار. كما تساهم في حسن اتخاذ القرارات واغتنام الفرص؛ مما يمكن من تخطيط سليم مبني على أسس علمية وفكرية وتحديد الأولويات بالنظر إلى مستجدات العصر المتسارع. وهذا يسهم في تطوير طرق التفكير الاستراتيجي للرقي بالمجتمع وتقدمه.

يعد امتلاك الرؤية المستقبلية جزءا من الدين الإسلامي، فهي تعمل على زرع الأمل وإيقاظ الهمم ونفي النظرة السلبية عن المسلمين من خلال استقراء وتتبع وتحليل معظم ما كتب في هذا الباب، والوعي بما للدراسات المستقبلية من أهمية وقيمة معرفية. فالمستقبل هو المجال الوحيد أمام الإرادة الإنسانية، وهو مجال العمل والسعي من أجل نهوض حضاري جديد.

كلمات مفتاحية: الاستشراف_ المستقبل_ الدراسات المستقبلية_ النهوض الحضاري.

Abstract:

This research demonstrates the importance of prospective studies and the need to carry them out, in order to reap the benefits and prevent the risks. It also helps us to make the right decisions and seize opportunities. It enables sound planning based on scientific and intellectual foundations, and the setting of priorities in view of the developments of the accelerating era. It helps develop strategic thinking methods for the advancement and progress of society.

Having a vision of the future is part of the Islamic religion, as it strives to instill hope, awaken determination and nullify the negative image of Muslims by extrapolating, following and analyzing much of what has been written in this section, and by being aware of the importance and cognitive value of future studies. The future is the only field of action of the human will, and it is the field of work and effort for a new progress of civilization.

مقدمة:

يعد الاهتمام بالمستقبل صفة ملازمة للبشرية، وهو أقرب للفطرة التي فطر الله الناس عليها، فلم يكن الجنس البشري منعزلا عن التفكير العميق في المستقبل منذ آلاف السنين. فقد تطلّع لآيات الآفاق والأنفس، وتدارس ذلك وسعى للبحث فيه لفهمه. إلا أن هذا الاهتمام لم يكن ممنهجا قبل أن يتحول إلى مجموعة من البحوث والدراسات التي تستطلع الأفق والمدى البعيد وتستشرف مستقبل الإنسان.

إن الدراسات المستقبلية واستشراف المستقبل يمكننا من قراءة التغيرات الجذرية التي نعيشها أو التي مضت، لنستشرف ما يمكن في المستقبل أو ما ستكون عليه. فنحن لا نستطيع أن نعرف بشكل أكيد كل ما سيحدث في المستقبل، لكن تطوير الرؤية الاستشرافية والنظر المآلي، سيصقل قدرتنا على تقييم الاحتمالات وحسن اتخاذ القرارات واختيار مسارات أكثر خدمة للأمة. فسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم يؤكد هذه النظرة الاستشرافية منذ عهود خلت، ويتجلى ذلك من خلال الحديث النبوي الشريف الذي رواه أنس بن مالك حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا"، فمما لاشك فيه أن هذه النظرة النبوية المستقبلية تتجاوز كل إمكانيات العقل البشري، لتصل به إلى ضرورة العمل والسعي في الأرض وعمارتها حتى آخر اللحظات في هذه الدنيا، والتي تتمثل في ظهور الأشراط الكبرى لقيام الساعة.

فكل أمة وكل شعب يسعى إلى تطوير طرق عيشه وتنمية قدراته، وإلى التفكير بجدية لتحسين الواقع الإنساني وتحقيق التميز الحضاري والوعي بأن العالم يقف على كوكب مشترك واحد ويمتلك مستقبلا مشتركا مترابطا ومتنوعا.

الاستشراف.. الدراسات المستقبلية

يعرّف "ابن منظور" صاحب "لسان العرب" الاستشراف بأنه أن تَضَعَ يدك على حاجبك وتنظر، وهو العلو والاستظهار ماديا ومعنويا، والتشرف للشيء التطلع، والنظر إليه وحديث النفس وتوقعه، كما عرفه الفيروزآبادي صاحب "القاموس المحيط": استشرف الشيء: رفع بصره إليه، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس. ونضيف أنه قد رفع بصره إليه؛ لينظر إليه نظرة متفحصة حتى يحيط به ويستبينه، وبسط كفه فوق حاجبه؛ ليتجنب أي شعاع ضوئي يُشوش على رؤيته؛ حتى يكون نظره حديد وصورة ما ينظر إليه أوضح له. ومن هنا كان استشراف المستقبل هو النظر إلى الزمن القادم ببصر حديد ونظر ثاقب، بغية تصوُّر الواقع المقبل، انطلاقًا من شرفة الواقع الحاضر، واستيعابًا لعبر الواقع الراحل.

والاستشراف هو محاولة تعرف تحديات المستقبل من خلال ما توفره معطيات الواقع من إحصائيات، ومن أنساق تسير وفقها متغيرات هذا الواقع، لتوقع ما قد يحصل من نتائج وتحديات على المدى القريب والمتوسط أو حتى البعيد، والاستعداد لمواجهتها، وقد يسميه بعضهم (تحسّب المستقبل)، كما يسميه آخرون (علم ما بعد الحداثة)[1].

والاستشراف اجتهاد علمي منظم يرمي إلى صياغة مجموعة من التنبؤات المشروطة والتي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتمعات، وفي فترة لاحقة تمتد لأبعد من عشرين عاما، وتنطلق من بعض الافتراضات الخاصة حول الماضي والحاضر..[2].

فالاستشراف أصبح أكثر من مجرد مهارة حدسية، بل تطور ليصبح مجموعة متكاملة من الآليات والمعارف، توضع كلها ضمن مصطلحات مثل "الاستشراف" و"المستقبلية" و"دراسات المستقبل"، وأصبحت هذه الآليات والمعارف تستخدم بشكل منتظم لتحسين أعمالنا المهنية وحياتنا. إننا في حاجة اليوم إلى معرفة كيف يتغير العالم حولنا وماذا علينا أن نتوقع في المستقبل، لنستطيع اتخاذ القرارات الحكيمة حول مستقبلنا المهني ووضعنا المالي والتخطيط لحياتنا بشكل عام. وكما أنه لم يعد مجديا أو ممكنا أن نحصر رؤيتنا في حيز محدود، كذلك لم يعد مفيدا أن نقصر اهتمامنا على الحاضر الزائل، بل وجب أن نتجاوزه إلى المستقبل، رؤية وفكرا وعملا، بل لعل الواجب هو أن نبدأ بالمستقبل ونستلهمه في معالجة الحاضر[3].

والاستشراف بهذا المعنى، لا يقصد به التكهن بأحداث المستقبل، ولكن العمل لجعل هذا المستقبل أفضل، وتحسينه واستباق ظروف المستقبل الممكنة أو المتوقعة حتى نستطيع التحضير لها، بمعنى آخر معرفة الفرص والمخاطر حتى نكون مهيئين لمواجهتها.

إن الاستشراف أو الدراسات المستقبلية أو علم المستقبل تصطدم بتعدد ووفرة المصطلحات المتجاورة والتي تدل على الاهتمام بالمستقبل دراسة وتطلعا، انشغالا واشتغالا. وهكذا نجد تضارب بين المختصين والباحثين في مجال تاريخ الفكر المستقبلي، في اختيار وتحديد مصطلح جامع ومتفق عليه حول المجهود الفكري المتوجه إلى دراسة المستقبل.

المنطلقات التاريخية للدراسات المستقبلية وجدل العلمية

يرى بعض المفكرين أن البداية العلمية لدراسة المستقبل كانت أوائل القرن العشرين على يد عالم الاجتماع كولم جيلفان الذي كان أول من اشتق اسما لهذا العلم وهو ميلونتولوجي mellontologie والذي يعني أحداث المستقبل وذلك عام 1907 دون أن يعني أن محاولة " التنبؤ" بأحداث المستقبل لم تكن معروفة سابقا.

فعلم المستقبل "Futurology" هو الاسم الشائع للدراسة المستقبلية في اللغة الإنجليزية، ويقابله في اللغة الفرنسية "Prospective". ويطلق عليه أحيانا اسم "a Future Studies". وهو مصطلح صاغه المؤرخ الاجتماعي الألماني المعاصر "أوسيب فليختايم" عام 1949م في مقدمة وخاتمة كتابه الشهير عن التاريخ، فقد كانت مقدمة الكتاب تحت عنوان "التاريخ وعلم المستقبل"، وترجمت إلى عدة لغات ونشرت في بريطانيا عام 1965م. وكان المعنى المحدد الذي وضعه "فليختايم" هو تشكيل علم جديد لتقدير أكثر الاحتمالات المستقبلية القابلة للتحقق. بينما ينسب إلى العالم "جاستون برجيه" استخدام كلمة "استشراف" (Prospective) في سياق الدلالة عن التطلعات نحو المستقبل والتخطيط له بطريقة أو بأخرى. وتشير بعض الدراسات أيضا إلى العالم الفرنسي "برتراند دي جوفينيل" الذي استعمل مصطلح "Futuribles" ليقصد به المستقبلات الممكنة، وذلك بالنظر إلى أنها تتكون من شقين: الأول "Futures"، ويعني المستقبلات. والثاني "Possibles" ويعني الممكنة[4].

وفي عام 1960م أطلق "جوفينيل وبتمويل" من مؤسسة "فورد" مشروعا لقب ب: "المستقبليون"، جمع فيه خبرات عديدة تقوم بطرح أفكار تخمينية حول التغيرات الاجتماعية والسياسية المحتملة[5].

وبذلك فقد شهدت الستينيات من القرن العشرين اهتماما واضحا أحدث تطورا كميا وكيفيا في الدراسات المستقبلية. وعرفت عشرات الدراسات والمقالات انتشرت في جرائد ومجلات ودوريات علمية نذكر منها المقال الذي نشره "ألفن توفلر" في مجلة "الأفق" Horizonفي صيف 1965م بعنوان "المستقبل كطريقة للحياة" (The future as way) أشار فيه إلى أولئك الرواد الساعين إلى تأسيس مجال بحثي حول المستقبل، وإلى تأسيس عدة معاهد ومؤسسات عملية في الدراسات المستقبلية في أوروبا وأمريكا.

ويعد "الفن توفلر" في مقدمة من كرسوا جهودهم العلمية للدراسات المستقبلية. ومن أشهر كتبه "صدمة المستقبل" الذي أصدره سنة 1970م، وترجم إلى ما يقرب من عشرين لغة، ووزع منه ما يقرب من ستة ملايين نسخة. وقد عُني فيه بما يجب أن تعلمه الناس لمواجهة التغيرات السريعة التي يعايشها كوكبنا. ومن أهم ما لفت له الانتباه هو اكتفاء الناس بدراسة الماضي لفهم الحاضر، وطالب بقلب مرآة الزمن مرة أخرى لأن دراسة المستقبل وتصوراته المختلفة بالإضافة لدراسة الماضي، تجعلنا نفهم الحاضر فهما نوعيا وعميقا ونتحسب مشكلاته.

فالبحث في المنطلقات التاريخية للدراسات المستقبلية أمر ضروري، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ الأفكار، إذ إنها تمكّن من التعرف على مناهج وأهداف الدراسة وبلورتها في المجتمع. فبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت حروب فكرية جديدة، والمنتصر فيها هو الفائز على جميع الأصعدة. وبذلك ظهرت مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية باعتبارها مصانع لأسلحة الفكر تجاوز عددها في الولايات الأمريكية 1750 مركزا، حيث تحتضن واشنطن العاصمة لوحدها ما يقارب مائة مركز. تخصص لهذه المراكز ميزانية ضخمة ومبالغ طائلة، وتضم خيرة الباحثين والمتخصصين في العلوم والسياسة والاستراتيجية. والأهم من هذا أن هذه المراكز تعمل بحرية تامة، حيث تقدم دراسات وتنتقد بعض السياسات وتطرح البدائل الصحيحة.

وفي نهاية سبعينيات القرن العشرين بدأت المحاولات الأولى للدراسات المستقبلية العربية في مجال التربية، وبذلك أصبحت هذه الدراسات من الدراسات الاجتماعية الهامة التي تساعد على الوصول إلى ما ينبغي أن يكون، وتطرح الاحتمالات الممكنة وتختار ما يتناسب منها مع الإمكانات المتاحة.

من الواضح أنه يصعب التحديد بصفة دقيقة سنة انطلاق هذا العلم لدى المفكرين الغربيين، وهذا الأمر ينطبق على تلك المحاولات الجادة والهادفة المحتشمة في العالم الاسلامي، ذلك أن اهتمام الباحثين العرب والمسلمين به جاء متأخرا مقارنة بالغرب.

فأول دراسة شملت العالم العربي حسب المفكر المغربي "المهدي المنجرة" قامت بها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية في باريس، وكلفت أكثر من ستة ملايين دولار، وقد خرجت هذه الدراسة بنماذج وسيناريوهات خاصة بالقرن الواحد والعشرين بما فيها ما يخص العالم العربي وقد تمت هذه الدراسة بدون أية مشاركة عربية[6]. وهو ما أثار انتقاد "المنجرة" لرفضه أن يرسم مستقبل الشعوب بدون استشارتها ومشاركتها. ثم توالت الدراسات بعد ذلك في العالم العربي منذ العقد الماضي، وانتهينا إلى الإقرار بأهميتها، غير أنها لم تصل إلى ما نرجوه ونطمح إليه.

الدراسات المستقبلية وموقعها بين العلوم

تعرضت الدراسات المستقبلية إلى إشكالية جدلية، تجلت في موقعها بين العلوم، وتباين الكتابات بخصوصها، واختلفت الآراء حولها بين قائل أنها علم، وبين آخر يصفها بالفن الذي لا يصل لدرجة العلم، وبين من يجمع بينهما معا. وحول جدل التسمية يقول "إدوارد كورنيش" أنها "حقل يبحث عن تسمية".

فالسمات الأساسية التي تصف العلم كعلم قائم بذاته ذكرها "فؤاد زكريا" في كتابه "التفكير العلمي"، ومنها التراكمية والتنظيم والبحث عن الأسباب والشمولية واليقين والدقة والتجويد... هذه الصفات وغيرها تعد أساسية للدراسات المستقبلية، وما ذكر الكثير من دارسي المستقبل أمثال "رحيم الساعدي" أن الدراسات المستقبلية تحمل صفة العلم بسبب:

- اعتمادها للمناهج العلمية المهمة كما في المنهج التحليلي والاحتمالي والحدسي والافتراضي.

- استخدامها للأدوات العلمية مثل الاستنتاج والتحليل والمقارنة والقياس والمنطق يضاف لذلك الالتزام بالموضوعية.
- وجود الغاية التي تسعى إليها تلك الدراسات.
- استخدام وسائل المعرفة كافة مثل الحواس والعقل والحدس.

ولا يمكن فهم الدراسات المستقبلية بمعزل عن كونها علما أولا ثم لا يمكننا افتراض ابتعادها عن العلوم المختلفة ثانيا[7].

ويرى "إلياس بلكا" أن الدراسات المستقبلية علم قائم بذاته وأنه وليد لأهم التطورات التي حدثت في مجال العلوم الإنسانية في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد ساعدت علوم كثيرة على استوائه ونضجه وتميزه عن سائر التخصصات الإنسانية كما أنه استفاد من العلوم البحتة –وخصوصا الرياضيات– وكذلك علوم الاجتماع والتاريخ والاستراتيجيا.

ويؤكد "مولاي مصطفى الهند" قائلا: فلسنا أمام تخيلات أو أوهام وإنما نحن أمام اجتهاد علمي قائم بذاته قطع الباحثون المعاصرون فيه أشواطا ومراحل واعتبره البعض منا ضربا من التيه والتخريف والجهل والرجم بالغيب[8]. واعتبر "قسطنطين زريق" الدراسات المستقبلية نمطا استطلاعيا وعلما يستشرف المستقبل وغير منفصل عن الماضي، ودعاه بالنمط العلمي الريادي المعاصر لحرصه على أن يظل ملتصقا بالواقع، ويتبع أسلوبا تجريبيا ويخضع نتائجه وأسلوبه للنقد والامتحان.

ومع أن هذا النمط يتميز بصفته العلمية، فليس معنى هذا أنه منفصل. فهو مثل النمط البدائي في أنه ينبع من نزعة أصيلة في النفس الإنسانية، نزعة الاستطلاع والاستفسار والتحسب. وهو يشبه النمط العقائدي في كونه يقوم على إيمان معين. إنه إيمان بالعلم الموضوعي وبأسلوبه المنطقي الاختباري ووسيلة لبلوغ الحقيقة، ولا يخلو من الخيال والتخيل ذلك أن العالم المبدع هو الذي يتميز بالرؤية، فلا يحصر همه في الحقائق الجزئية، بل يعمد إلى تصور الروابط التي تجمعها، ولا يقف عند الواقع المعلوم بل يطلق خياله لاختراق آفاق المجهول. ولولا هذا وذاك لما قام علم أو جرى كشف أو اختراع[9].

إلا أنه هناك وجهة نظر مغايرة للمفكر "ضياء الدين سارادار"، ذلك أن الدراسات المستقبلية (Futures Studies) ليست علما خالصا، بمفهوم العلوم الطبيعية، بل هي تعبير عن تداخل العلوم البينية، وأن التعامل معها بداية يقتضي " في أن نهمل الفكرة القائلة بأن الدراسات المستقبلية هي علم (discipline) له حدود جامدة ونظريات ثابتة ومصطلحات سرية غامضة ورجال عظام قاموا بوضع أسسه وكيانه المهيب[10]. كما يعتبر "سارادار" أن الدراسات المستقبلية بوضعها الحالي قد صاغتها الرؤية الكونية الغربية، وهو ما يشكل الأزمة الأساسية التي تواجه العاملين في هذا الحقل المحتل، وأن تحريره يعد تحديا كبيرا يواجه العاملين القادمين من خلفيات غير غربية. كما أن العالم الهولندي "فريد بولاك" انتقد هذا المصطلح معتبرا أن المستقبل مجهول ولا يمكن أن نرسي علما للمجهول. وقد آثر "ألفين توفلر" أن يصفها مؤخرا بعد سنوات طويلة من الاشتغال فيها بأنها "فن وليست شكلا هندسيا" وبعد أن شرح طريقته فيها وهو يجيب عن أسئلة كثيرة في كتابه "خرائط المستقبل" وليأتي العلم لمساعدة الفن"[11]. كما أشار إلى أن الدراسات المستقبلية ليست مستقلة منهجيا عن بقية العلوم بل تشارك العلوم الأخرى في مناهجها، وأنها متقاطعة مع الكثير من فروع العلم، وفي هذا الصدد يقول:" وبالأخذ في الاعتبار الواقع المعاصر، فليس من الممكن للدراسات المستقبلية أن تكون موضوع علم واحد وموحد. وبطبيعة ما يتم تناوله، فإن الدراسات المستقبلية هي نشاط متعدد الأبعاد ومتداخل العلوم. إنه يعالج التعقيدات والتناقضات التي يحفل بها العالم" [12]. إلا أن المهتمين بالمستقبليات يرون أن لها وحدوية موضوعية واهتمام مشترك، وهذا ما يجعلها مجالا تخصصيا، وقد يستلزم الأمر وقتا كافيا وتراكما معرفيا بأن يجعل منها مجالا له قواعد ثابتة.

ومن وجهة نظر أخرى، فهناك من الباحثين من يدرج علم الدراسات المستقبلية ضمن مفهوم علم الاجتماع لأنه يعطي معارف عن الانسان وعالمه. وذلك ما اعتبره "فلختهايم" (أول من طرح مصطلح علم المستقبل). ونجد في كتابات "المهدي المنجرة" مصطلح "علم المستقبل". ومع أن جدل التسمية كان ولازال مطروحا، إلا أنه وضح في كتابه "الحرب الحضارية الأولى" قائلا: المستقبلية ليست علما قائما بذاته، وإن استعانت مناهجها بالعلوم الحقة والعلوم الاجتماعية. أما موضوعها فهو الدراسة لوضع معين بشكل مفتوح على البدائل والخيارات لتفحص جميع التطورات واستقراء النتائج الممكنة المترتبة عن هذا القرار أو ذلك على هذه التطورات. ولهذا يتحدث عن مستقبلات بصيغة الجمع في ميدان الدراسات وليس عن المستقبل بصيغة المفرد. والغاية الأساسية من هذه الدراسات هي تحديد الأهداف المتوخاة، وإمعان النظر في جعلها ممكنة في المدى المتوسط والبعيد من خلال التأثير على الحاضر ومجراه.

إن المستقبلية في نظر "المنجرة" هي مجموعة من الأبحاث حول تطور المستقبل. ولا يتعلق الأمر بعلم حقيقي، لذلك جاء رفض مصطلح "Futurology" عند خبراء المستقبلية. فالمستقبلية منهج يسمح بدراسة التطورات المختلفة والمحتملة لوضع معين، في وقت محدد وتطبيق نتائج هذا القرار أو ذاك على هذه التطورات، ويتميز منهجها بالشمولية، وتعدد التخصص، والسلوك الدائم لسبيل مفتوح يعتمد فيه على دراسة خيارات وبدائل[13].

ويتفق معه في ذلك "أحمد صدقي الدجاني" حيث يرى أن الدراسات المستقبلية وإن لم تكن علما بمفهوم العلم التجريبي، فإنها تحاول اعتماد مناهج علمية تنأى بها عن التنبؤ. وفي نظر بعض المفكرين أنها نتاج لعملية تفاعلية بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، وأنها ليست علما، وإنما تبني رؤاها على العلوم المختلفة. إنها مجال معرفي بيني (Interdiscipline) متداخل وعابر للتخصصات وتقنياته كل المعارف والمناهج العلمية ومفتوح على الإبداعات البشرية التي لا تتوقف على الفنون والآداب والعلوم[14].

ويرى "محمد بريش أن " الدراسات المستقبلية فن وعلم يدرس من خلاله الباحث كيف يعالج الواقع المعاصر، بناء على مآلات ممكنة ومستقبلات تراد، وكذلك هي نوع من التخمين المبني على دراسة الماضي والحاضر، لما سيقع في الثلاثين سنة المقبلة[15]. وهذا ما يوضح لنا أن الدراسات المستقبلية حقل واسع وشامل ومتعدد التخصصات العلمية والفنية على حد سواء. وسواء اعتبرناها فلسفة أو فنا أو علما فهي في كل الأحوال تهدف استطلاع المستقبل بغرض الوصول لحل مشاكله.

الدراسات المستقبلية والرؤية الإسلامية المعاصرة:

وجب الإشارة إلى أن جوانب الفكر المستقبلي لم تلق العناية الكافية في بلداننا الاسلامية، وواقع الأمة الاسلامية اليوم بعيد عن فقه التخطيط والتنظير وصناعة المستقبل، كما أننا لا نستطيع فهم الاستشراف المستقبلي وما يحمله من أهمية، ذلك أننا منهمكين في تسيير أزماتنا الآنية وغارقين في القضايا الطارئة، مما يمنعنا من تركيز الجهود على الذي نريده ونصبو إليه، بدل الذي لا نريد، حتى لا نصبح ضحايا الأقدار، غير جاهزين للعالم الذي نعيشه.

وإذا كان التطلع إلى المستقبل قد ارتبط في الأنماط البدائية القديمة بالكهانة والاطلاع على الغيب، كما اشتهر بذلك رواد معبد "دلفي" الشهير باليونان، فإن الرؤية العقدية الإسلامية هي أبعد ما يكون عن هذا الاتجاه المناقض لأصول العقيدة الإسلامية التي تنفي علم الغيب عن البشر مهما علا شأنهم[16].

إن مصطلح "الغيب" قد يقصد به الماضي وقد يقصد به الغائب عن ساحة المشاهدة، وقد يقصد به المستقبل، وقد يقصد به العالم الآخر، أي ما بعد الموت. وبالتأمل والتدبر يمكن تحديد المصطلح ودلالته بحسب السياق وبيان المحظور من المباح. وقد

يلتبس في الأذهان مصطلح "الغيب" ويخلط بينه وبين "المستقبل". ذلك أن المستقبل المدروس هنا هو "عالم الشهادة" وهو المقدر من المقدمات والمدرك من السنن الإلهية الجارية، والذي سوف ينكشف للإنسان شيئا فشيئا." ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[17]. ولا بد من الإيمان واليقين بأن علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى أو من أطلعه على شيء منه لأمر يريده، في حين أن الاستشراف المستقبلي يمكن دراسته علميا للتوصل إلى أفضل السبل الكفيلة باستقباله، كالأخذ بالأسباب في الأمور الحياتية، وعدم اعتباره اعتراضا على القدر المحتوم، كما أن استشراف المستقبل لا يعتبر رجما بالغيب، وإنما هو محاولة علمية تتكامل فيها الدراسات لمعرفة جوانب صور الحاضر وتحليلها والتعرف على مجرى الحركة التاريخية بدراسة الماضي وملاحظة سنن الكون، والانطلاق من هذا كله إلى استشراف المستقبل وتشوفه[18].

ويشير "المهدي المنجرة" إلى أن هناك فرقا شاسعا بين الغيب الذي هو من علم علام الغيوب، وبين مفهوم المستقبل كما يوظفه الخبراء في مجالات الدراسات المستقبلية. فمفهوم المستقبل حسب هؤلاء انعكاس على الزمن لآثار ونتائج أعمالنا أو عدم عملنا اليوم. وواضح من مضمونه ونتاجه أن الأمر لا يتعلق بنبوءة ولا كهانة[19].

فالدراسات المستقبلية لا تدعي معرفة الغيب، لكن مداها الزمني لا يتجاوز في الغالب خمسين سنة، لكن تفيد في تقليل الاحتمالات الواردة في المستقبل مما يجعل صورة المستقبل أقل غموضا واضطرابا.

وفي العقود الأخيرة تحدى مستشرفوا المستقبل أو (المستقبليون) الرؤية القدرية الاستسلامية باعتبارها تشل العقل البشري وتحول دون تقدمه وتعيق في نفس الوقت نجاح الأفراد وتقدم الإنسانية، وذلك من خلال صقل مناهج وأساليب تسمح لنا بالتعرف على بعض أحداث المستقبل وتقييم تأثيرها.

وإننا إذا فهمنا أن المستقبل هو ما يحدث لنا وهو بالفعل ما سنحصل عليه، وقد لا يعجبنا، بدلا من الاقتناع بأن المستقبل يمكن أن يكون شيئا نحن قادرون على صنعه، فذلك يحد من قدرتنا على التفاعل المسبق وعلى السعي بحيث نستطيع أن ننجز عمليا خياراتنا المستقبلية ولا تثبط عزائمنا في استكشاف الفرص الممكنة أمامنا في المستقبل.

يتضح إذا، أن النظر إلى المستقبل ودراسته ليس أمرا غريباً عن الاسلام، فاستشراف المستقبل أمر مشروع، ويتفاوت حكمه التكليفي بحسب الحاجة إليه. والذي يبدو جليا أن الدراسات المستقبلية في هذا العصر يمكن اعتبارها من الحاجيات الضرورية للأمة، وحكمها كحكم الفرض الكفائي الذي تتكلف به جهة دون أخرى، بحيث تحصل الكفاية بعملها. وذلك لأن هذه الدراسات باتت من الحتميات التي لا يمكن الاستغناء عنها لما سبق من منافعها وأهدافها من اكتشاف المشكلات قبل وقوعها، والتهيؤ لمواجهتها، واكتشاف الطاقات والموارد، وبلورة الاختيارات المتاحة وترشيد المفاضلة بينها. كما أن هذه الدراسات تقوم على مناهج بحث وأدوات درس متقنة، وتحظى بقدر عال من الاحترام في الأوساط العلمية[20]. وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب، ففي الدراسات المستقبلية حماية للأمة وحسن تدبير لها، وإعداد العدة لمواجهة ما تحتاجه. والتفكير المستقبلي جزء أصيل من الشريعة الإسلامية، له أسسه ومناهجه وامتداداته التي تصل إلى اليوم الآخر، وإن كان حجم التوظيف والتشغيل للتقعيد المستقبلي والنظر المآلي لازال ضئيلا.

إن الدراسات المستقبلية لا تهدف إلى رؤية بصورة محددة ودقيقة، فهذا مما استأثر الله بعلمه، ولكنها تهدف إلى تقديم احتمالات مشروطة يستفيد منها الإنسان، كأن يستعد للبرد أو الغلاء بما يلزم، مع عدم إغفال الإيمان بالقدر خيره وشره.

ومن الأهداف الأساسية للاستشراف هو تنمية—مهارة نفاذ البصيرة إلى المستقبل. والمقصود بذلك القدرة على اتخاذ القرارات الصائبة في الحاضر وعلى المدى البعيد. فالأمة الإسلامية لا تملك خريطة واضحة المعالم لهذا العالم السريع التغيير، ولا بوصلة دقيقة

لتحديد المسير، بل تعرّض مستقبلها – بوعي أو بدونه – إلى أخطار كبيرة، وتتحكم في تشكيل هذا المستقبل قوى عظمى لا يهمها إلا ما يخدم مصالحها، مما يجعلها تابعة ومفعول بها لا فاعلة.

إن غموض خارطتنا الفكرية عن المستقبل يجب ألا يدفعنا إلى الاحجام عن مواجهة هذا المستقبل والتطلع إليه وسبر أغواره. ففي وقتنا الحالي نادرا ما نجد شركة من الشركات الكبرى أو دولة من الدول العظمى لا تستند على دراسات استشرافية لمستقبلها. إن ما يطلق عليه اليوم "دراسات مستقبلية" إنما يمثل دراسات جادة تقوم على مناهج وأبحاث وأدوات وفحص دقيق، وتحظى بقدر عال من الاحترام في الأوساط العلمية، فبها تنهض المعاهد والمراكز البحثية.

الدراسات المستقبلية ودورها الحضاري في العالم الاسلامي

تعد الدراسات المستقبلية حقلا فريدا من نوعه، وتعتبر من أهم التطورات الأخيرة في مجالات العلوم الانسانية وتتجلى أهميتها في محاولة استنهاض الواقع وتقديم بدائل تساعد في البناء الفكري والمادي والروحي للإنسان والأمم. وتسعى لتوضيح المناهج التي يمكن الاستفادة منها ووضع مناهج جديدة من أجل النظر البعيد المدى. فهي تمكن من الاستعداد للأزمات وحسن مواجهتها وإيجاد البدائل وتفادي الأخطاء قبل وقوعها وبناء الطاقات والإعداد المهم للأحداث المستقبلية وتطوير النظر إلى أبعد الآفاق لا الحصر في زاوية تدبير حالات الطوارئ، وتمكّن المستشرف من العمل على وضع صور للمستقبل وفق الأسس البحثية والتخطيط المناسب والمناهج المعتمدة.

ثم إن النظر في التحولات الحاصلة الآن على الكرة الأرضية تعطينا توجها جديدا للفكر والتفكير، ذلك أن التغيرات مستمرة ومتسارعة وتستلزم نوعا ونمطا جديدا للتفكير وتدفعنا إلى بناء جسر بين الماضي والمستقبل، تحول فيه المعرفة من ماذا حصل في الماضي إلى معرفة حول ماذا يمكن أن يحصل في المستقبل، وذلك برسم خارطة الطريق لما قد يقع في المستقبل مع توخي الحذر.

وعليه فإن استقراء المستقبل –أو الاستشراف–هو مهارة يمكن أن نتعلمها، فهو يعطينا الوقت لنقرر قبل أن نصطدم بالمخاطر والصعوبات، ويساعدنا في بلورة أهداف طويلة المدى تكون ذات قيمة وقابلة للتحقيق، وفي صياغة استراتيجيات معقولة للوصول إلى تلك الأهداف[21]. ويعتقد "جون ستيوارت" أننا كلما ابتعدنا بمنظورنا في المستقبل، وكلما تطورنا ذاتيا من خلال توقعنا للمستقبل، فإن فرصة بقائنا كنوع ستتحسن. وإذا ما كان التغيير يتصارع فإن القاعدة التطورية ستصبح ذات أهمية أكبر في السنين القادمة.

إن الاهتمام بالمستقبل والوعي به مرتبط ارتباطا وثيقا بالتفكير الأخلاقي وبمنظومة القيم وبصنع القرار. ويتجلى ذلك في دراسة الخيارات المختلفة لعالم الغد، والتفكير في الخيار الأمثل الذي سوف ننفده، وذلك يقوم على أساس القيم والأخلاق. فالتفكير في المستقبل المرغوب فيه والمفضل هو نوع من التفكير الأخلاقي. فالمستقبل أرضية اختيار ومراجعة منظومة القيم. والعالم اليوم (شعوبا ودولا) يسوده التفكير بالتميز والتفرد، وهو يتسارع في ابتكار أسباب الدمار والمخاطر من أجل السيطرة وفرض التبعية والتأثير، وهذا ما يدفعنا إلى الوعي بالمستقبل أهمية ودراسة وتطلعا. فالدراسات المستقبلية جهد علمي منظم مهتم باستشراف مستقبل الدول والحضارات ومجالات الحياة.

إن الدراسات المستقبلية هي تفكير جدي وعملي وإبداعي في الوسائل والمناهج والطرق الممكنة لتحسين الوضع الإنساني. وهذا التعريف رغم مثاليته، فإنه محتم على البشرية أن تفكر بشكل جماعي في مصيرها. لقد هيمن – ولازال – على الفكر المستقبلي، الاستحواذ والأنانية والاقصاء والرغبة الجامحة في التفرد أو التميز السلبي. ومن المعلوم أن كل شعب له الحق في التفكير في

تطوير طرق عيشه والوصول إلى التميز "الحضاري"، ولكن لا يجوز أن يكون ذلك على حساب سعادة واستقرار وأمان باقي الشعوب[22].

ومن النماذج الحديثة على هذه الدراسات الاستشرافية، ما تنبأ به المهدي المنجرة من ثورات الربيع العربي قبل حدوثها، انطلاقا من مقولة "الضغط يولد الانفجار"، فقد كان على يقين تام من أن الشعوب العربية إنما تعيش هوانا وظلما لا ينحصر عند الاستغلال فحسب، بل يصل الى الإذلال. وبما أن الفطرة البشرية لا تقبل بالذل ولا الاستمرار فيه، فإن الانسان سيثور وينتفض لا محالة. لقد كان "المنجرة" يتتبع هذه الثورات من بعيد وهو على فراش المرض آنذاك، وكان يستنكر وبحدة الهيمنة الغربية على العالم الثالث لاستغلال خيراته وفرض نماذجه الثقافية والحضارية.

إن البناء الحضاري كما يقوم على أهمية بناء الإنسان، فهو كذلك يقوم على أهمية الوقت وعنصر الزمن. وهو عبارة عن أطوار اجتماعية يمر بها المجتمع وما يقدمه من إنجازات بمجموع أفراده، بحيث تبدأ عندما يمتد نظر الأفراد إلى أفق أعلى من يومهم ومن حقبتهم التي يعيشونها. يقول "موريس بلوندال": "المستقبل لا يتوقع بل يتم تحضيره". فالدراسات المستقبلية لا تعني فصل حلقات الزمن الثلاث (الماضي والحاضر والمستقبل) وتعمد التركيز على المستقبل فقط، بل يتم اعتبار حلقات الزمن الثلاث بنفس القدر من الاهتمام.

فقضية الاستشراف المستقبلي والتخطيط له، تعد من القضايا المهمة التي تسهم في حل أزمات الأمة الإسلامية والعالم بوجه عام على مختلف الأصعدة، سياسيا، وعسكريا، واقتصاديا، وصحيا، واجتماعيا، وفكريا... والانسان بوصفه مستخلفا في الأرض، فإنه منوط به –وهو يستشرف المستقبل– أن يسعى إلى المحافظة على سلامة مخرجات ومنجزات الأمة الحضارية في العلم وفي شتى مناح الحياة، إبداعا، وإنتاجا، وتطويرا، وحلا للمشكلات، ومواجهة للأزمات، وحسن إعداد، وتربية للجيل. لكون ذلك جميعه، يصب في بوتقة المستقبل، ويرتقي بالأمة نحو المعالي والسؤدد والتمكين الحضاري.[23]

خاتمة

إن الاهتمام بالدراسات المستقبلية في العالم الاسلامي يعد إشارة ضرورية بأن يكون للمسلمين رؤية محددة ومنهاجا خاصا يعالج قضايا ومستقبل الأمة وفق ثوابت الدين، ويساهم في تأسيس مستقبل لنا لا علينا، وحتى لا يصنع غيرنا مستقبلا لنا وفق مصالحه الخاصة، كما أنها أيضا تساعد على اكتساب الحكمة والبصيرة باستحضار الدنيا وباتصال بالآخرة.

فالأمة الإسلامية لا تعمل للمستقبل بمعناه الحقيقي، وليس في إنتاجها الثقافي شيء يساعدها على ذلك، وهذا ما دفعها إلى فقدان صدارتها وريادتها مما حدا بالبعض إلى البحث في البشارات المنتظرة والنبوءات بدنو أجل الأمة ونهايتها. ونتج عن ذلك ثقافة الانتظار التي جعلت المستقبل يتفلت من بين أيدينا، غير مدركين بأن الدراسات المستقبلية علم وجب النهوض به لصياغة فكر ورؤية استشرافيين تساهم في صناعة المستقبل ذاته كما أنها تولد ثقافة التدبر والفاعلية.

وبالتالي، فالدراسات المستقبلية تعنى بوضع برامج وخطط تهتم بقياس القدرات الوطنية للنهوض بالمستقبل، وتحديد آلية النهوض، بل وإعداد وتنمية وتربية جيل من المفكرين الشباب القادرين على التخطيط والتنظير والتفكير لبناء مستقبل واعد. كما أنها تمكن الباحث من إعمال الفكر والتخطيط الدائم وتقوية الحدس المستقبلي وتنمية قدرات التنبؤ والتحلي ببعد النظر والقدرة على مساءلة الأفكار المستقبلية. ومن تم مساءلة الأشخاص عن الفعل لصناعة دورتنا الحضارية الجديدة.

الهوامش:

1 : معجم عبد الجليل الميساوي، حوار من الواقع وتواصل بين الأجيال معارف، مصطلحات، تحيين، مفاهيم، ص: 85.
2 : فؤاد بلمودن، الدراسات المستقبلية الأسس الشرعية والمعرفية والمنهجية لاستشراف المستقبل، ص: 16.
3 : رزيق قسطنطين، نحن والمستقبل، ص: 329.
4 : رحيم الساعدي، مقدمة إلى علم الدراسات المستقبلية، ص: 37.
5 : ادوارد كورنيش، الاستشراف مناهج استكشاف المستقبل ص: 276- 277.
6 : المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ص:33.
7 : رحيم الساعدي، مقدمة إلى علم الدراسات المستقبلية ص 25.
8 : مولاي مصطفى الهند، نحو تجديد منهج النظر في قضايا الفكر الإسلامي، ص: 159.
9 : قسطنطين زريق، نحن والمستقبل، ص 74.
10 : ضياء الدين سارادار، ماذا نعني بالمستقبليات الإسلامية ص: 11.
11 : الدجاني أحمد صدقي، الدراسات المستقبلية وخصائص المنهج القرآني، فصيلة المستقبلية، عدد2 ص: 22.
12 : ضياء الدين سارادار، ماذا نعني بالمستقبليات الإسلامية ص33.
13 : المنجرة، المهدي، الحرب الحضارية الأولى مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ص:276.
14 : محمد إبراهيم منصور، الدراسات المستقبلية: الماهية وأهمية توطينها عربيا "مجلة المستقبل العربي" عدد 416 ص:37.
15 : انظر موقع الجزيرة نت حلقة ضيف وقضية بتاريخ 10/7/2000 بعنوان الدراسات المستقبلية.
16 : فؤاد بلمودن، الدراسات المستقبلية الأسس الشرعية والمعرفية والمنهجية لاستشراف المستقبل، ص: 45.
17 : سورة فصلت: الآية 52.
18 : ناصر محمد الأحمد الجابر: الإسلام والمستقبل، مؤتمر القمة الإسلامي الخامس ص:7، (بتصرف).

19 : فؤاد بلمودن، الدراسات المستقبلية الأسس الشرعية والمعرفية والمنهجية لاستشراف المستقبل، ص: 46.

20 : هاني بن عبد الله بن محمد الجبير، من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية، ص: 56.

21 : ادوارد كورنيش، الاستشراف، الصفحة 23.

22 : خالد ميار الادريسي، مجلة مالات.

23 : سعيد محمد علي بواعنه، استشراف المستقبل في الإسلام، الصفحة 173